استمرارية هيمنة معطيات الثقافة التقليدية المحلية لدى المثقف الجزائري
(السحر والشعوذة أنموذجا)

بن عفان سهام
طالبة دكتوراه علم الاجتماع جامعة تلمسان

تقديم :

المقال في الأصل هو تلخيص لرسالة ماجستير علم الاجتماع الثقافي، عالجنا من خلالها مسألة استمرارية هيمنة معطيات الثقافة التقليدية المحلية لدى المثقف الجزائري و الممثلة في السحر و الشعوذة، فمن المعروف أن الثقافة الشعبية هي إرث تناقله الأبناء عن الآباء والأجداد، فلازمت مسيرة حياتهم الجماعية من خلال مجموع القيم و المعتقدات و الممارسات الدالة على التفاؤل والفرح حيناً والخوف والتشاؤم حيناً آخر. ومن المعروف أيضا أن الحياة بتعقيداتها و تمظهراتها المختلفة، قد تدفع الناس تحت تأثير حالاتهم النفسية والاجتماعية إلى تأويل تلك التعقيدات و التمظهرات على أنها أحداث ستقع استنادا إلى خلفية معرفية طبعتها التجارب الجماعية في الذاكرة، وتناقلتها الأفكار التي لا تزال تتعلق ببعض تلك المعتقدات على الرغم من التقدم العلمي والانفتاح على العالم عبر وسائل الاتصال الحديثة ، وإن تغيرت بعض تلك المعتقدات نتيجة تلك التغيرات في المجتمع المعاصر.

و دراستنا هذه تمثلت في محاولة تفسير سبب استمرارية إحدى المعتقدات الشعبية التي تؤثر في سلوك الناس وتصرفاتهم في تعاملهم اليومي مع الخفي و العجيب و السحري، لأن هناك أشياء كثيرة يعتقد الناس بأن لها دورا في حياتهم كالطالع، والأبراج ، والعين، إلى آخر ما هنالك من المعتقدات.

لذاك أعتبر دوما السحر في السوسيولوجيا كأحد تجسدات الثقافة الشعبية والتي ظلت لصيقة بالإنسان منذ بداية النشء رغم غموض العديد من جوانبه و تضارب الآراء بشأنه بين مؤيد و معارض، و بين ممارس و ممارس عليه .إن اللجوء إلى السحر و الشعوذة هو في الأصل ظاهرة اجتماعية أصيلة و ملموسة في مجتمعنا و أن قطاعا كبيرا من شرائح و فئات متنوعة تتعامل مع هذه الظاهرة و تتفاعل معها بطريقة آو بأخرى، لذا كانت الاعتقادات و الممارسات ذات العلاقة بالسحر و الشعودة ومازالت من الظواهر التي شغلت و تشغل حيزا كبيرا من اهتمام العلماء و الباحثين لما لها من صلات

بطبيعة السلوك الاجتماعي للأفراد و الجماعات. فالسحر كظاهرة اجتماعية لها نظامها الخاص و الذي يظهر من خلال سلوكات و ممارسات الجزائريين.

ومن هنا كانت أهمية الدراسة الحالية التي جاءت لتلقي الضوء على الممارسات السحرية في المجتمع الجزائري الممثل في فئة المثقفين وذلك لمحاولة فهم و تفسير استمرارية هيمنتها لدى عينة من مثقفي مدينة سيدي بلعباس.

2 - الإشكالية و الفرضيات:

يعد المعتقد في المنظور الاجتماعي أحد مكونات عقل الإنسان و موجهاته و"أول أشكال التعبير الجماعية عن الخبرة الدينية التي خرجت من حيز الانفعال العاطفي إلى حيز التأمل الذهني"[1]. وهو بهذا المعنى، اجتماعي الشكل و المضمون، فالمعتقدات وجدت عند مختلف الأمم والشعوب[2] ولدى كل الناس ريفيين كانوا أم حضريين، أميين أم مثقفين ولكن بدرجات متفاوتة، كما نجد أن المعتقد هو صورة الخرافة ، فنجده يشمل الأرواح والشياطين والقديسين و الذي يسمى عموما بالسحر و الممارسة السحرية.

فالسحر و ممارسته يعتبران من المعتقدات التي كان الإنسان وما يزال يلجأ إليه في الظروف التي تقتضي منه ذلك، فقد كان "الاعتقاد بالسحر أي بفعالية الكلمات السحرية والتعاويذ والتمائم وما إليها وأداء الطقوس المصحوبة بتزويد أسماء القوة لتحقيق النتائج المرجوه"[3] ، الهم الأكبر للإنسان ولاسيما في أطوار نموه الأولى إذ إن الاعتقاد بالسحر قد مارس تأثيره الفعلي على عقله وفكره.

و المجتمع الجزائري مثله مثل المجتمعات الأخرى له نسقه الخاص من المعتقدات و الخرافات التي تتجسد من خلال ممارسات سحرية[4] ، فالجزائريون مثلهم مثل السواد الأعظم من الشعوب، يعيشون في ظل العديد من أنساق الاعتقاد التي نجد آثارها في تمثلات عامة و ممارسات خاصة تؤطر المشهد الاجتماعي و الثقافي للجزائريين. و إن تعددت تمظهراته بتعدد الجماعات و الخصوصيات الاجتماعية، فمثلا نجد في مدينة سيدي بلعباس، نسقا خاصا من المعتقدات المبنية أساسا على أساطير ساكنة المنطقة المتواترة بين الأجيال، كأساطير العين و الطيرة و خط الرمل و غيرها من الأساطير التي شكلت عقل و أسس تفكير الإنسان العباسي خصوصا و الجزائري عموما.

لذا نجد أن أشكال الممارسة السحرية في هذه المنطقة تتقاطع و تتشابه مع غيرها من مناطق الجزائر[5] ، فهي تشكل صورة وجودها والعالم الموجودة فيه وفق رؤية العالم فهناك التمائم " الحروز" و التعاويذ ، و هناك "الجداول" و "الأربطة"، و هناك "الخفيف" و غيرها من المعتقدات التي خلقت لنفسها رواسي و أسس باسطة بذلك هيمنتها وسيطرتها داخل عقل ساكنة المنطقة. و هي كلها ممارسات مرتبطة بمختلف مشاهد الحياة، بالحب وبالبغض، بالعلاج و المرض، بالحماية و بالأذية .بالاختصار فالسحر يرتبط بالموت و الحياة، بالخير و الشر. و هو في كل ذلك يعكس التجربة الجماعية في التعامل مع الخفي و العجيب، و يوظف في خدمة معتقدات العباسيين النابعة من بيئتهم وزمانهم ومدى تطورهم ورؤيتهم للأمور غير المعزولة عن وضعهم الاجتماعي والاقتصادي والثقافي والنفسي.

و لنا أن نتساءل عن سر استمرارية هذه الممارسات بين المثقفين بالرغم من المكانة الاجتماعية و طبيعة تكوينهم العقلاني و الموضوعي. فهل هذا راجع إلى عامل التنشئة المحصل عليها؟ أم راجع إلى التصنيفات المكتسبة من ثقافة محيطه التي هي في حد ذاتها مبنية أغلبها على تجارب الأوائل؟ هل أصبح السحر المآل و العلاج الوحيد لمثل هاته الفئة " المثقفة"؟ أم هو راجع إلى نقص الوازع الديني؟ و ماذا تحقق هذه الظاهرة كمقابل لإستمراريتها؟ هل تحقق الإشباع أم أشياء أخرى؟ فلماذا يلجأ إليها المثقف بالرغم من مستواه العلمي الثقافي ؟

يرى علماء الاجتماع من "فريزر" إلى "**ليفي ستروس**"، مرورا "**بمارسيل موس**" و"**مالينوفسكي**" و"**إيفانس بريتشارد**" وآخرين عديدين أن لكل جماعة communauté تشكل صورة وجودها و العالم الموجودة فيه وفق معتقداتها، وذلك للتأكيد على أهمية المعتقدات في بناء رؤية العالم[6] و السمة المميزة لها بمقابل الجماعات الأخرى، فالدافع الأساسي لممارسة السحر والشعوذة ليس دائما دافعا عدائيا، يتوخى الضرر للآخرين، بل يستعمل لمواجهة مختلف الأزمات والمعضلات التي تصادف الإنسان في حياته وعلاقاته. فأمام عوز الإمكانيات يمكن للإنسان أن يلجأ إلى استخدام الأدوات والمواد والعلاقات التي يتوفر عليها ليعطي لها دلالات ومعاني و هدفية أخرى تعبر عن معتقداته الأكثر عمقا.و عليه تتمحورت دراستنا حول السؤال السوسيولوجي التالي: ما هي أسباب استمرارية هيمنة معطيات الثقافة الشعبية المحلية على ممارسات و اعتقادات الفئة المثقفة في مدينة سيدي بلعباس؟

و للإجابة على السؤال وضعنا الفرضيات التالية :

1- للتنشئة الاجتماعية أثر في قولبة " تفكيرالفرد المثقف" وإعطائه رواسي توجه سلوكاته و ممارساته و رؤيته للعالم فهو يؤمن بالسحر و قدرته على تقديم جواب لكل ما يستعصى فهمه أو استيعابه.

2- تعد السلطة الرمزية لمعتقد العين و الجن والشؤم و الطيرة في الثقافة المحلية عامل قوي في استمرارية الممارسات المرتبطة بالسحر و الشعوذة.

2 - منهجية الدراسة :

لا توجد طريقة علمية واحدة يمكن الاعتماد عليها بمفردها، لأن طرق العلم تختلف باختلاف المواضيع التي يدرسها كل باحث.و تختلف المناهج باختلاف المواضيع المراد دراستها، وفي هذه الدراسة تم الاستناد على الاسلوب الوصفي المتمثل في منهج دراسة الحالة . لأننا وجدنا أن هذا المنهج هو الأكثر قدرة على تحقيق الأهداف الموضوعة للدراسة، فنحن لا نريد التتبع التاريخي للظاهرة و لا نريد مقارنة الممارسة السحرية بين منطقتين أو فترتين زمنيتين، كما أننا لا نريد بحث في أثر المعتقد في سلوك الأفراد، و إنما نريد الاحاطة بأسباب استمرارية المعتقدات المرتبطة بالسحر و الخفي لدى عينة من المثقفين ، بناءا على استطلاع تمثلاتهم حول السحر .

و من أجل تطبيقه اتبعنا الخطوات التالية :

✓ **الأداة :** فقد استخدمنا تقنية المقابلة الموجهة ، حيث طرحنا على المستجوبين مجموعة من الأسئلة لمعرفة موقفهم و تمثلاتهم إتجاه جوانب محددة من موضوع البحث. وقد احتوى دليل المقابلة على 12 سؤال موزعة على ثلاثة أقسام، تمحور القسم الأول حول العناصر التعريفية بالمبحوثين كالسن والجنس و المستوى التعليمي و الوضع السوسيومهني و الحالة .أما القسم الثاني فقد تم تخصيصه لمؤشرات المتعلقة بالفرضية الأولى المتعلقة بطبيعة التنشئة المحصل عليها ، أما القسم الثالث فقد خصص للأسئلة المتعلقة بموقف و راي المبحوثين اتجاه بعض المعتقدات الشعبية كالعين و الجن و غيرها .

✓ **عينة الدراسة :** فاعتمدنا اختيار العينة "غير احتمالية"[7] في " العينة القصدية"التي بواسطتها ينتقي الباحث وحدات عينته مما يخدم أهداف دراسته و بناء على معرفته دون ان يكون هناك شروط او قيود غير التي يراها هو مناسبة من حيث الكفاءة أو المؤهل العلمي أو الاختصاص أو غيرها . و قد ضمت عينتها 08مبحوثين موزعة بين 05 ذكور و 03 اناث ،تراوحت أعمارهم بين الواحد و الثلاثين "31"، إلى غاية الثامنة و الثلاثين "38" و بين شهادات مختلفة كلهم من و لاية سيدي بلعباس بعضهم من المدينة و البعض الاخر من البلديات و الدوائر.

✓ **مجالات الدراسة :** تم تحديد المجال المكاني لاختيار عينة البحث من منطقة سيدي بلعباس كون هذه المنطقة كغيرها من باقي المناطق البلد الجزائري اذ يعتقدون في أمور الشعوذة و العين و غيرها من ما تحويه ثقافة هذا الشعب اضافة الى استمراريتها لدى الأفراد المثقفين ، بحيث أجريت الدراسة الميدانية في شهر افريل 2014 الى غاية شهر مارس 2015.

3 – مفاهيم الدراسة :

لتحليل معطيات الجانب الميداني اعتمدنا على مجموعة من المفاهيم أهمها :

3 – 1 الثقافة الشعبية:

هي الثقافة التي تشكل تبعا للواقع اليومي و من خلال النشطات العادية المتجددة كل يوم ، فهي تعتبر انجازات يقوم بها الإنسان بحيث يعبر بها عن حياته و طريقته في التفكير عبر تفاعله مع المحيط و مع غيره من البشر ، و يتم هذا في نسق معياري و قيمي ترتضيه الجماعة ،و عادة ما يكون هذا النسق مجموعة من المعتقدات السائدة و التقاليد الموروثة بحيث ترتبط مباشرة بالحاجات الروحية و اليومية للإنسان.

ذلك معناه أن الثقافة الشعبية تنطوي على أنماط للسلوك تتميز " بالتقليدية و بالشخصية" و تقوم على القرابة ، و تخضع لضوابط غير رسمية ، و تركيز على النظام الأخلاقي و التراث الشفاهي ، ولهذا تكون مستقرة نسبيا ،

و بالغة التماسك و التكامل ، وقد وجد هذا النموذج للثقافة في المجتمعات البدائية و يشيع أيضا في المجتمعات القروية غير المتحضرة"[8].

3 – 2 السحر و الشعوذة:

يعد السحر و الشعوذة من الممارسات البشرية القديمة المنتشرة في معظم بقاع العالم، و الملاحظ أنه كلما اتسعت دائرة الإيمان بالقوى الخفية و الماورائية زادت ساحة اعتماد السحر و الشعوذة، إذ يتخذان لتفسير الظواهر و حل ما استعصى على الإنسان، و لعل ذلك ما جعل " الشعوب القديمة ترى العالم مسكونا بما لا يحصى من الكائنات الروحية التي تفسر الخير أو الشر و تنسب إلى هذه الأرواح و الجن التسبب في حوادث الطبيعة و لا تعتبر الحيوانات و النباتات فحسب بل أيضا الأشياء غير الحية في العالم مسكونة بها".[9]

وفي ذلك إشارة من قبل "فرويد" إلى عراقة الممارسات السحرية لدى الشعوب القديمة. فالعالم من المنظور البدائي لا تشكله المظاهر المادية التي يعيشها الإنسان بل و القوى الخفية التي تتحكم في المظاهر الكونية و تسيطر عليها ، و التي تؤثر بدورها في الإنسان السحر بعينة السيطرة على هذه القوى اللامرئية و تسخيرها لخدمة سواء في مواجهة مصاعب الطبيعة أو في مواجهة خصومه من بني جنسه.

غير أن تطور الحياة البشرية و ما رافق ذلك من تحول في معتقداتها الدينية، لم يقضي على السحر في جوهره البدائي و إنما دفعه إلى تطوير أدواته ليتوافق مع الأيام الجديدة ، و يكتسب قوته منها لأنها تقوم أساسا على فكرة القوى الغيبية المجردة.[10]

يقوم السحر على مبدأ تواجد العلاقات الروحية بين الكائنات و الأشياء فعندما يريد الساحر إلحاق ضرر بغيره يأخذ شيئا من جسده و يمارس بواسطته أشياء معنية فيلحق به الضرر الذي يريد ؛ كالصلة الوهمية الصلة الذاتية و هذا النوع من السحر يعرف بالسحر الاتصالي أو التعاطفي".[11] إذ يفترض تأثير الأشياء في بعضها عن بعض بواسطة نوع من التعاطف الخفي، حيث ينتقل ذلك التأثير من شيء لأخر

أما "الشعوذة" أو "الشعبذة" فهي فن يعتمد على السرعة الشديدة و خفة اليد و القيام بعمليات من أجل خداع المشاهدين و إيهامهم بأشياء وجود لها ، و ذلك بالسيطرة على القوى المتخيلة بإظهار الشيء على ما هو عليه في الواقع بقوة النفس المؤثرة فيه ، و من هنا نجد أن الشعوذة تختلف عن السحر ، لأن السحر يهدف إلى إخضاع القوى الطبيعة لإرادة الإنسان ، أما ما يقوم به المشعبذ فهو نوع من الخفة و إخضاع القوى الطبيعية لإرادة الإنسان ، أما ما يقوله المشعبذ فهو نوع من الخيال .

3 – 3 المعتقد الشعبي :

الاعتقاد لغة هو التصديق بالأمر و الإيمان به و هو من الفعل اعتقد و تقال اعتقد بالشيء اي اقنع به [12] ، فالعقيدة هي ما عقد و صدق عليه المرء بضميره و عقله ، فلا يحمل فيه الشك او الكذب او التراجع او التنازل عليه، فالمعتقد انجاز الفكر[13] ، وهو انساني ، فعندما تقول آمن إنسان بالشيء أي صدق و اقنع بوجوده فكريا [14] ، فهو الايمان المطلق بما لا يستطيع الانسان ان يراه او يدركه بحواسه ، وقد تكون المعتقدات في الأصل تابعة من اعماق ابناء الشعب ذاته عن طريق الكشف و الالهام. فمن شروط الاعتقاد، أن من يعتقد أمرا يعتقد صدقه، وتكون له على ذلك بينات مستمدة، إما من الأشياء التي خبرها مثل شهادة الحس، أو من أمور مسلم بها، أو من أمور نقلت إليه بطريق التواتر[15] . وهكذا كلما ترسخ الاعتقاد في أمر ما، تثبت السامع من أدواته في هذا الأمر في سعي دؤوب نحو أكمل اعتقاد وأشمل البراهين وأتم أصول. ومعلوم أن الاعتقاد المعتبر هو ذلك الذي يحمل صاحبه على العمل أو بتعبير الانتربولوجين على (الاشتغال)[16]

أما المعتقد الشعبي ، فهو نوع المعتقد الشائع بين الشعب او صادر عن الشعب ، سواء كان معتقدات أو عادات أو مايبدعه الشعب و يستعمله في فهم و تصور العالم الخارجي و العالم فوق الطبيعي و قد كان مصطلح المعتقد الشعبي يطلق على خرافات أو تخيلات[17]. و عليه فان المعتقد الشعبي هو أساس التفكير الرمزي و ينطبق على الأساطير و الطقوس.

3 – 4 المثقف:

المثقف بكسر القاف هو الحاذق صلب الإرادة الذي يكون على غير اعوجاج في حذاقته و هو الأكثر تميزا بين إضرابه في حياته.[18]

فالمثقف هو كل شخص يكتسب ثقافة مختلفة ، فالشخص يكتسب خصائص ثقافية ، و هذا ما يسمى بالثقف و قد شاع استخدام هذا المصطلح في الانتروبولوجيا في أواخر القرن التاسع عشر ، خصوصا في الولايات المتحدة الأمريكية فهو عملية التي يكتسب الفرد أو الجماعة عن طريقها خصائص ثقافية أخرى من خلال التفاعل و الاتصال المباشر[19]. و مهما يكن سيظل تعريف المثقف مرتبطا بالثقافة ، فهو أن الإنسان إذا تمكن أن يبتكر أو يضيف شيئا ما في حياته المعاشية فهو المثقف[20].

4 - الجانب الميداني و النتائج المستخلصة :

استهلينا دراستنا بدراسة استطلاعية فتحت لنا المجال أكثر للتعرف على الميدان الذي تجري فيه الممارساتالسحرية و تتجسد فيه الظاهرة، آملين بذلك معرفة كوامن السلطة التي يتمتع بها الساحر، حيث قمنا بعدة

زيارات إلى أماكن تواجد "السحرة و العرافين"، فوجدنا أنفسنا نخوض جولة في أعماق عالم غريب "عالم السحر" ، وذلك بزيارة المتهنين فيه، و تعرفنا على عالمهم الذي يعمه الغموض، فهؤلاء "السحرة و الشوافين" يدعون شفاء الناس و فكْ المربوط بعمليات سحرية، و حتى إعطاء الرزق و الشفاء من العلل و الوقاية من العين و حتى تخليص جنس الإناث من هاجس و قيد العنوسة، و هكذا ربطنا ما اضطلعنا عليه في الجانب النظري من أنواع السحر و ما يمارسوه السحرة في الواقع . و اكتشفنا بأن هناك فعلا تقاطعا كبيرا بين ما هو مكتوب نظريا وبين الواقع المعاش ,فتقريبا كل ما وجدناه عن أنواع السحرة و طرقهم السحرية من عروض مغرية وإقناع كبير على تحسين أحوال الناس و أذية أُناس أخرين كلها أمور عايشناها أثناء الزيارات التي قمنا بها إلى "السحرة" أثناء الدراسة الاستطلاعية، حيث ذهبنا إلى عدة "سحرة" في المدينة ومن أحياء مختلفة منها كـــــــــــ:"حي الوئام بمنطقة سيدي الجيلالي"، و "منطقة قنبيطة" و "منطقة بريانتو" و "منطقة طريق معسكر".....، إضافة إلى البلديات و الدوائر مثل، بلدية ابن باديس التي إشتهر فيها الكثير من الممارسين لهاته المهنة،و قد لاحظنا تلك السلطة التي يتمتع بها المشتغلين بالسحر ، إذ يُفرض على الزائر أن يناديه بكل وقار و بالألقاب ذات الوزن كـــ"السي فلان- الحاج فلان – الحاجة الفلانية"، إضافة إلى ألقاب لها دلالة على القدرة و الخبرة والفعالية في ممارسة السحر مثل " فْلاَنْ الْجَنْ" فلاَنَةَ طَيَارَةَ، "فلان يجَمَدْ الماء، فلان يْشُوفْ غَايَة,تْشُوفْ عَلاَاااااامَة" حتى أصبحت هناك منافسة فيما بينهم أي بين "تجار السحر" بحيث من خلال سؤالنا عنهم كانت العروض الجيدة هي التي تتميز بالخبرة والفعالية وانخفاض في السعر كأن يقول لك الذي يتداول على زيارتهم "فْلَانْ يْشُوفْ غَايَة و مْرَخَـــصْ فَالسُومَة " مع التذكير الدائم منهم على شرط الإبكار إليهم حتى يتم استقبالنا مع العلم أن أماكن تواجدهم تتسع وتزداد انتشارا عبر مختلف البلديات و الدوائر مثل:بلدية حاسي زهانة – وبلدية الأمطار – و بلدية سيدي دحو، و دائرة سيدي علي بوسيدي – و تلاغ – بضرابين – وسيدي إبراهيم- تسالة- بوخنفيس....و غيرهم العديد والعديد لدرجة أنه لما بدأنا في السؤال على"القلاعين و الشوافين"، صعُب علينا الإختيار أيهم نقصد؟،

فهدفنا من وراء زيارتنا لأماكن تواجد "السحرة المشعوذين" لم يكن عبثاً وإنما كان قصد التركيز أكثر في الملاحظة على الممارسات و الطقوس التي يقوم بها الساحر ويفرضها على زائره ونرى إن كان هناك فعلا تقاطعا مع ما إشتهروا به ،و مع ما اشتهروا به ، وهكذا اكتشفنا بأنه هناك فعلا نقاط تقاطع واضحة بين ما كتب عن السحر و عن الممارسة الفعلية له. كما مكنتنا هذه الزيارات من تحديد عينة الدراسة التي كانت في البداية 12 مبحوث لكن لصعوبة الاتصال ببعضهم اقتصر مجتمع بحثنا على 8 مبحوثين فقط .

و بعد الحصول على العدد الذي يخدم لنا الموضوع ،تحتم علينا الذهاب إليهم إلى أماكن عملهم وقمنا بعرض عليهم المكان الذي يعجبهم ويريحهم، و حتى بيوتهم إذا تحتم الأمر، و كان ذلك مبادرة منّا لكي نوفر للمبحوث الراحة و القابلية للإجابة عن أسئلة المقابلة، و بهاته الخطوة استطعنا إجراء المقابلات .

أما بحثنا الميداني فقد أخذ منا الوقت الكافي بداية من شهر فيفري 2014 الى غاية شهر مارس سنة 2015 بين تفريغ المعطيات و تحليلها و كذا الانتقال بين مكان تواجد "المبحوثين" تارة و أماكن " السحرة والمشعوذين" تارة أخـرى.

وقد توصلنا بعد الدراسة الميدانية إلى مجموعة من النتائج تمثلت فيما يلي:

- تعريف المبحوثين للمثقف كان يصب في قالب واحد: هو ذلك الفرد الذي يتميز بتفكيره الخاص و الذي تسوسه العقلانية و يهدف إلى التجديد و التغير و ان له دور في جماعته من ناحية توظيف فكره بالإضافة الى القدرات الخاصة التي يضيفها عليه اختصاصه المهني أو الكفاءات الفكرية و هذا ما أكد عليه **هشام شرابي** في كتابه "مقدمات دراسة المجتمع".

- الممارسة السحرية هي حالة خاصة تمزج بين الخرافة و المعتقد و الصورة الذهنية التي تنشأ أثناء التفكير فيما هو قدسي و دنيوي و هي جزء من التراث الشعبي.

اتفاقهم على أن السحر و الشعوذة أمر ذكر في القرآن الكريم أي أنه عبارة عن حقيقة متفق عليها، و أنه عبارة عن عملية يقوم فيها الساحر بكتابة الطلاسم و التمائم كي تعلق أو تسحق و تعطى في الأكل آو الشرب أو الرش. كما اتفقوا على أن السحر هو ظاهرة متواجدة منذ القدم فالجميع ذكروا حادثة الرسول صلى الله عليه و سلم مع السحر الذي دُبّرَ له من طرف اليهود، فأجمعوا على أن السحر شعور فردي و جماعي ذو قواعد و أصول مرسومة بدقة متناهية بحيث يمزج بين الخرافة و المعتقد، وهو ذلك الجزء من التراث الشعبي.

- السحر بالنسبة لهم وسيلة تستعمل لإلحاق الأذى بالأفراد كما يعد وسيلة للتخلص من شره "أي طريقة علاج السحر بالسحر".

- هناك عدة ممارسات واقية من العين الحاسدة كالملح و تعليق "الودعة أو الخامسة".

- فيما يخص طريقة العلاج اتفق معظمهم على التردد على العرافين للوصول إلى حل لمشاكلهم تارة ومنهم من أكد أنه للرقية الشرعية عامل كبير في شفاء المرضى و ذلك لتجريب هذه الأخيرة و النجاح التي حققته داخل المجتمع، و للمعرفة أن الرقية الشرعية لا ضرر و لا جهل و ليس لها مؤثرات سلبية ويبقى ضرب الخفيف كذلك يساهم في الشفاء و لكن عند الأقلية من أفراد المجتمع.

- الاعتقاد الشبه المطلق للمبحوثين في صدق بعض الممارسات التي تساعد على الوقوف أمام الأعمال الشيطانية و التصدي لها مثل "الخامسة – التباخير – و تعليق حدوة الحصان على الباب" كما تبين لنا أن هذه المعتقدات اكتسبها كل المبحوثين من خلال تنشئتهم الاجتماعية.

- أما بالنسبة لمدى مساهمة الثقافة المحلية بمعتقداتها و أساطيرها في تأصيل و استمرارية سيطرة الممارسة السحرية في معالجة المشاكل و الأمور المستعصية فقد اتفقت إجابتهم بان للثقافة التقليدية سلطة رمزية عالية على ذهنية الفرد و رؤيته للأمور، و تأثر هذه السلطة على توجيه سلوك الأفراد، و بهذا نخلص الى أن فرضياتنا و المتمثلة في

مدى فاعلية السلطة الرمزية للسحر و العين و الجن على المجتمع الجزائري باعتباره عامل قوي للتأثير على تكوين ثقافة الأفراد قد تحققت.

- كما تبين لنا كذلك أن لجوءهم إلى الممارسة السحرية هي تجسيد للعالم غير المحسوس المباشر، مع العلم أنه يوجد تناقض بين هذه الممارسات اللامعقولة وبين متطلبات العقل و مكانتهم المتسمة بالمعرفة و العلم و التجربة.
- يعتقد المبحوثين ان العين أساسا هي أداة الحسد على أساس أنه تلقى هذا الاعتقاد بعامل التنشئة الاجتماعية على أنها أداة الحسد بحيث تعودوا على إخفاء ما يخافون عليه من الحسد، أو لإفساد جماله و كماله ينشئون فيه عيباً و ذلك بعدم جلب أنظار الناس ولا يتمناه الحساد، بحيث ذكروا بعض الممارسات التي تعودوا رؤيتها منذ الصغر فضلاً عن الأولياء و المربيين مثل: التسبيح بالملح – وضع الخامسة – الودعة... و غيرها من الممارسات.
- كما بينت لنا الاجابات المحصل عليها أن عامل التنشئة و التجارب التي عاشوها و التي سمعوا عنها من البقية المحيطين بهم و التي تصب معظمها في الأغراض و النتائج السلبية التي يخلصها "السحر و الشعوذة" بحيث يؤثر بالسلب، و هذا الأمر ولد لديهم قابلية التعامل مع السحر و ممارسته ولهذا اكتسب صفة الاستمرارية لديهم.
- أما فيما يخص طقوس و كيفية ممارسة السحرة للسحر فوجدنا بأنها متشابهة لدى أغلبية المبحوثين و هذا فضلا عن الذي لاحظناه ميدانيا مثل: القليع، قراءة الطالع، مع العلم أن للسحر طقوس كثيرة ذات طابع تشخيصي فجميع السحرة الذين لجئوا إليهم المبحوثين قاموا بطرح السؤال نفسه و المتمثل في "ما إسمك ما اسم والدتك" و هاته أمور تساعد الساحر وتفتح له الأبواب للإطلاع على الأمور الخفية و المتعلقة بزمن الماضي و الحاضر و حتى المستقبل.
- إن في ممارسات السحر أمور مخفية كثيرة و التي تهدف إلى إلحاق الأذى بالغير مثل الطلاق الذي ذهب ضحيته أحد مبحوثنا كما قال، إضافة إلى العرض الذي قدمته أحد الساحرات لالحاق الأذى بزوج احد مبحوثاتنا.
- اتفق المبحوثين على أن اللجوء إلى السحرة يكون في حالة تأزم الوضع الصحي و عجز الأطباء على وجود سبب المرض واعتبروه وسيلة مستعجلة للتخلص من سحر لا يعالجه إلا ساحر. كما أنهم لا يتغاضوا على عامل الرقية الشرعية في الشفاء من أمور السحر و سلبياته و ذلك ناتج عن التجربة بحيث أكدوا بان الرقية الشرعية لا ضرر فيها و لا غموض و ليس لها مؤثرات سلبية.

الاستنتاج العام:

بقدر ما كانت الدراسة صعبة بقدر ما كانت مشقتها ألذ لأنه ليس من البساطة و ليس بالأمر الهين على الباحث أن يلمس نتيجة جهده و تعبه في الوصول إلى الواقع سواء كانت مفترضة او غير مفترضة من قبل. فدراستنا هاته فرضت علينا الولوج و التعمق في صلب الظاهرة و التعرف على خبايا المجتمع الجزائري أكثر و أكثر، فالظاهرة في حّد ذاتها متشعبة لما تحتويه و تتضمنه من ظواهر أخـرى خفية تتجسد في ممارسـات و طقوس تفرض ذاتها و هيمنتها على الفرد الناشئ و المتلقي من عادات و تقاليد و اعتقاد، أما الفرد الذي بنينا دراستنا عليه و على أساس ما يحمله من أفكار و ما ينتج منه من ممارسات هاته الأخيرة التي لم تعرف عنده التحرر لما احتوت عليه ثقافة مجتمعه الشعبية، و المحليـة و بشـكل أدق الاعتقـاد في ممارسـات و فعاليات السـحر و الشـعوذة، فالسحر و الشعوذة بدوره عرف امتداداً منذ الزمن البعيد و عبر كافة الديانات و عـلى مستوى جميع الشعوب، وبعـد هذه الجولة في فضاء الممارسات السحرية و جذورهـا و الوقوف على المعتقدات الشعبية التي تتضمنها، فإن الخلاصة المؤكدة و التي تخرج بها حين تـأملنا للممارسات السحرية التي عرفت استمرار ملحوظ لدى الفرد المثقف، هي في الأصل استمرار لنسق المعتقدات الشعبية ، ذلك أن هذه الممارسات تنطلق من خلفية معرفية لها تصور للحياة و الكون و نظام العلاقات التي تجمع بين أجزائه، و هي لا تكتفي بظاهرة المعتقد الشعبي بل تسكنها أسرار و لها جذور ثقافية و مخيالية، و بالتالي استمرارية الممارسات بين الأجيال و عبر كل فئات المجتمع و طبقاته ، تدل على استمرارية وعيهم لذلك النسق المعرفي من خلالها، فإعادة تكرارهم لها أحياء لما كان يقوم به السلف سابقا و يعزز استمرارية و عيهم بجدوى تلك الممارسات ويرسخ في أذهانهم و يجدد كل ذلك وعيهم بذلـك.

و إذا اعتبرنا السحر كطقس يمارس من قبل الأفراد يحضرنا ما أشار إليه "دور كايم" في أن الطقوس هي ربط الحاضر بالماضي و الفرد بالجماعة، فالوظيفة الحقيقية للطقس لا تكمن في التأثيرات الخاصة و المحددة التي يبدوا أنه يهدف إليها، و التي من خلالها تميزه عادة و لكن في الحركة الشاملة التي و إن بقيت دائما و في كل مكان مشابهة لنفسها إلا أنها مع ذلك قابلة لأخذ أشكال مختلفة بحسب الظروف "إنه يثير أخيرا مشكل فعالية الطقس الذي تضطر أيضا " أنتروبولوجيا " الشأن المعاصر أن تجد له حلاً، و بالنسبة إليه يوجد الجواب في مجتمعي "فالطقس ينتج حالات ذهنية جماعية تنتج عن حدث اجتماع الجماعة "ما هو مهم كون أفراد ما مجتمعين يحسون بالمشاعر ذاتها ويعبـرون عن أنفسهم بأفعال مشتركة، هذا كلـه يقودنا إلى الفكرة نفسها، الطقوس قبل كل شيء هي الوسائل التي من خلالها تؤكد من جديد جماعة بشرية حضورها دوريا شيء ، و يختم تحليله بشرح ان الحياة الجماعية عندما تصل الى درجة معينة من الفعالية" عندما تتوفر شروط ديموغرافية ومجتمعية و ثقافية توقظ الحياة الدينية لأنها تحدث حالة الجيشان و تغير شروط النشاط النفسي، إذ لا يمكن أن يوجد مجتمع لا يشعر بالحاجة الى تثبيت و تقوية المشاعر الجماعية بين فترات منتظمة".

كما أن طبيعة ممارسة السحر تكون في الطابع الخفي من بدايتة إلى غاية ما يخلفه من نتائج، كما أنه يحمل طابع اللامعقول الذي يتحول في أذهان أغلبية المثقفين معقولا خاصة و أن دراستنا تتكلم عن ساكنة ولاية سيدي بلعباس و جراء ما لاحظناه من خلال بحثنا الميداني وجدنا أن هذا الفرد مهما حاول التجرد بأفكاره قصد التوعية و التغيير إلا أنه لا يمكنه العيش بعيدا عن جماعته التي سبق لها و أن هيأت له طريقة تفكيره و تفسيره لأمور الحياة في قالب سمُوه الثقافة الشعبية المحلية، وسوف تبقى تمنهجها على أساس أنها هي الهوية التي تمثلهم وينتسبون إليها بما تحويه من اعتقاد في أمور "العين و الشؤم، و الطيرة، و السحر"، و كوني فرد من هذا المجتمع أتحدث الآن بصفة المراهنة على أن ينزل أحدكم إلى الميدان و يتعامل مع أي فرد من أفراد المجتمع الجزائري ولا يكون شكل الحوار يميزه طابع واحد كأن يقول لك «كيما قالوا صحاب بكري، كيما قالت مّا- هاذي عادة خلاها لنا جدي و تمثل عرشنا و أصلنا». أو في طابع الرموز أو الممارسات البسيطة "هاداك فيه العين الله يجيب الخير، الله يخرج هاذي الضحكة على خير".

الإحالات و الهوامش :

1 - **ديتكن ميتشل: معجم علم الاجتماع: ترجمة ومراجعة إحسان محمد الحسن، دار الطليعة بيروت. بدون سنة الطبع ! .ص 134- 135.**

2 - **صمويل نوح كريمر وآخرون : أساطير العالم القديم . ترجمة د . أحمد عبد الحميد يوسف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة 1974 ، ص 7- 8.**

3 - **Mauss Marcel**: Sociologie et anthropologie. 8eme edition. Ed.PUF.Paris 1999. PP. 10-11.

4 - **Doutte Edmond**: Magie et Religion dans l'Afrique du Nord. Ed Maison Neuve et Gunther . paris 1984 p143 .

5 - **للمزيد أنظر إلى بداك شابحة: الممارسات السحرية للمجتمع الأمازيغي. منشورات دار السعادة. الجزائر.2001.**

6 - **André Akoun & Pierre Ansart** :Dictionnaire de sociologie. Ed . le Robert . SEUIL. PARIS .1999.P 316.

7 - **محمد زيان عمر: "البحث العلمي ,و مناهجه و تقنياته" ,ديوان المطبوعات الجامعية ,1987. ص.282 .**

8 - **محمد عطاف غيث ، قاموس علم الاجتماع ، كلية الأدب جامعة الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ص168 .**

9 – **سيغموند فرويد، الطوطم و التابو ، ترجمة بوعلي ياسين ، دار الحوار ، سوريا ، ط1/1983 ، ص98.**

10 – **الشعوذة: خفة في اليد و اخذ كالسحر، يرى الشيء بغير ما عليه أصله في رأي العين، و قيل هي الخفة في كل أمر، ابن منظور، لسان العرب، دار صادر للطباعة و النشر، بيروت 495/13.**

11 – **سامية السعداني ، السحر و المجتمع دراسة نظرية و بحث ميداني ، بيروت ، ط2 ، 1983.**

12 – **ابن منظور ، لسان العرب ، مادة عقد المجلد الثالث ، دار الصادر الطبعة الأولى ، بيروت ، 1992 ، ص301.**

13 – **محمد مرتضي الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت لسان ، " مأخوذ عن الطبعة الأولى ، المطبعة العبرية المنشاة بجمالية مصر المجلة 1306 ، ص234.**

14 – **طوالبي نور الدين: الدين والطقوس والتغيرات، ترجمة وجيه البعيني، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، منشورات عويدات بيروت – باريس، ط.1 . 1988 . ص 51 .**

15 – **المرجع نفسه . ص 134 .**

16 - E. Evans-Pritchard : *Sorcellerie, oracles et magie chez les Azandés*, Paris, Gallimard, 1972. P 601.

17 - **شوقي عبد الحكيم ، الفولكلور و الأساطير العربية ، دار ابن خلدون ، بيروت ، الطبعة الثانية ، 1983 ، ص11.**

18 – احمد الفلاحي "حول الثقافة" دون طبعة ص23.

19 – محمد السويدي، مفاهيم علم الاجتماع الثقافي و مصطلحا ته ، الطبعة الأولى 1991 ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، ص10.

20 - احمد بن نعمان ، سمات الشخصية الجزائرية من منظور الانتروليوجيا النفسية ، ط 1988 ، ص40- 41.